الوعي بالمنـهج وإشكاليّات تطبيقه في الخطاب النّقديّ الجزائريّ عبد الملك مرتاض أنموذجاً

Awareness of the method and its applied problems in the Algerien critical discourse Abdel Malik Mortadh as exempl

د. عبددو رابح♥

المُعرّف الرّقميّ للمقال:DOI:10.33705.0114.026.066.011

تاريخ الاستلام: 07-02-2024 تاريخ القبـول: 28-05-2024

ملخّص: هذه الدّراسة هي محاولة للبحث في الأسس المنهجيّة والكشف عن الخلفيّات المعرفيّة والمنطلقات النّظريّة التي تحدّد المسار النّقدي للأستاذ "عبد الملك مرتاض" كنموذج للنّاقد المتمثّل لأهمّيّة المنهج وآليات تطبيقه في الدّراسات الحداثيّة، وعليه حاول البحث الوقوف عند إشكاليّة المنهج في الدّراسات النّقديّة الجزائريّة المعاصرة وما مدى حضور الخلفيّة المعرفيّة الغربيّة في الممارسات النّقديّة للباحثين الجزائريّين؟ مع العودة إلى الخطاب النّقدي لمرتاض وتبيين دوره في التّخفيف من وطأة الاضطراب المنهجي؟ ثم ماذا عن خاصّيّة "اللاّمنهج" التي تبنّاها ناقدنا؟

♥جامعة ابن خلدون تيارت، الجزائر، البريد الإلكتروني: rabdeddou@gmail.com (المؤلّف المرسل).

كلمات مفتاحيّة: الوعي بالمنهج؛ الخطاب النّقدي الجزائري؛ إشكاليّة اللاّمنهج؛ عبد الملك مرتاض.

Abstract: This study is an attempt to research the methodological basics and reveal the cognitive backgrounds and theoretical premises that determine the critical path of Professor "Abdelmalek Mortadh" as a model of a critic who represents the importance of methodology and the mechanisms of its application in modernist studies, and therefore the research tried to stand at the problematic of methodology in contemporary Algerian critical studies and to what extent is the Western knowledge background present in the critical practices of Algerian researchers? Returning to Mortadh's critical discourse and showing his role in alleviating the impact of methodological confusion, and what about the "non-methodology" characteristic adopted by our critic?

Keywords : Awareness of methodology; Algerian critical discourse; non-methdology problematic; Abdelmalek Mortadh.

-مقدّمة: في ظلّ راهن عربي متحجّر فكريّاً وثقافيّاً وساحة أدبيّة ونقديّة تشهد ركوداً واعتماداً كليّاً على المناهج السّياقيّة حققت الدّراسات اللّسانيّة المعاصرة ثورة معرفيّة ومنهجيّة لم يعرفها تاريخ النّقد الأدبي حين دعت إلى الدّراسة الآنيّة المحايثة وقد تلقى النّقاد والمنظّرون هذا المنجز وقدموا من خلاله "رؤيّة نقديّة" جديدة تتجاوز المناهج السّياقيّة ـ التي ربطت النّص بالمؤثّرات الخارجيّة والمرجعيّة ـ لتمسك بالأبعاد التّركيبيّة والدّلاليّة والأسلوبيّة في بنيّة النّص العميقة بأدوات إجرائيّة تتحرّى الدّقة المنهجيّة.

وكنتيجة لهذا التّوجه المعرفيّ الجديد ظهرت عند الغرب العديد من المناهج النّقديّة فتكاثرت النّظريات وتنوّعت الممارسات التّطبيقيّة، فما إن يظهر منهج نقدي حتّى يتأسّس على أنقاضه منهج آخر والكلّ يدّعي الدّقة العلميّة والقدرة على التّحليل الموضوعي العميق، فتشابكت الآراء وتعقّدت المواقف لتطفو على السّطح "إشكاليّة المنهج في الخطاب النّقدي المعاصر".

ولأن الفكر النّقدي العربي ساكن لا يلتفت لتراثه الزّاخر ولا يحاول مسايرة الواقع تمثّلاً وإنتاجاً لنظريّة نقديّة عربيّة خالصّة، كانت قضيّة التّأثر بالمنجز النّقدي الغربي حتميّة لا مفرّ منها فكانت إشكاليّة المنهج في النّقد العربي أشدّ وطأة فجزء من الإشكاليّة انتقل مع المناهج الغربيّة والجزء الآخر نتج عن خصوصيّة البيئة العربيّة فالفروقات العقديّة والفكريّة والثّقافيّة بين الحضارتين العربيّة والغربيّة لا جدال فيها.

ومع هذا السّيل الجارف من النّظريات النّقديّة والأدوات الإجرائيّة الغربيّة لم يكن للنّاقد العربي عموماً والجزائري خصوصاً أن يبقى بمعزل عن هذه الحركيّة والنّشاط النّقدي المتجدّد فكان لا بدّ من تبنّي تلك الاكتشافات العلميّة والمنهجيّة الغربيّة والتي صارت لا تحقّق طموحات النّقاد ولا تسعفهم لسبر أغوار النّصوص المتطوّرة في أساليبها وجدّة مواضيعها.

.. **<u>الخطاب النّقدي العربي وسؤال المنهج في ظل الحداثة</u>:** شهد العالم في بداية الألفيّة الثّالثّة ثورة تكنولوجيّة وانفجاراً معرفياً لم يسبق له مثيل اكتسح كل مجالات الحياة السّياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة وبطبيعة الحال لم تبق الجوانب الفكريّة والثّقافيّة بمنأى عن تلك التّحولات فظهرت آثار العولمة باعتبارها "**ثقافة عالميّة حقيقيّة لم تتخل يوماً عن مسعاها لامتصاص كل غريب عنها**" [1] كنتيجة لذلك انتقلت الحداثة الأدبيّة والنّقديّة إلى مرحلة جديدة اعتبرها العديد من الدّارسين والمختصين انتقالا طبيعياً في ظلّ التّطور التّاريخي

والحضاري للبشريّة حيث سطت العولمة على كلّ شيء "**الملبس والمأكل وأنماط الحياة ،كما هيمنت على الأدب واللّغة وأساليب التّفكير والإبداع**" (2).

ولأن العولمة الثّقافيّة ضغطت وكرّست توجّهات نقديّة معيّنة وطروحات نظريّة وإجرائيّة مستجدّة كان تفاعل النّقد العربي عامّة والمغاربيّ خاصّة تفاعلاً حتمياً بدأ من دراسة النّص في شكله ووصل إلى أنساقه الثّقافيّة المضمرة ،والمتأمّل للنّقد المغاربي ستلوح أمامه إشكاليّة التّأثر بالمنجز النّقدي الغربي نتيجة التّلقي والمثاقفة فقسم كبير من الدّراسات النّقديّة المغاربيّة تعتمد على المفاهيم النّظريّة والتّطبيقيّة الغربيّة في قراءة الأعمال الأدبيّة وهي إمّا: محاكاة وإسقاط أو ترجمة حرفيّة للمنجز النّقدي الغربي.

ومع هذا يرى بعض الدّارسين أنّ ذلك جزء طبيعيّ من عمليّة النّمو والتّطور الفكري للوصول إلى مرحلة النّضج ولكنّ الواقع يثبت أنّ الإشكاليّة عميقة ومعقّدة كيف لا وقد أضحى الإبداع العربي يقرأ بمنظور غربي ويدرس ويحلّل بأدوات غربيّة ف " **النّقد الغربي هو الذي يوجّه النّقد الأدبي العربي ،ويفرض عليه في كلّ مرحلة إبدالا ته الخاصّة والمتجدّدة**"(3) ولعلّ هذا ما يقودنا للاستفسار عن مدى دقّة الدّراسات المعتمدة على المناهج الغربيّة في قراءة الإبداع الأدبي العربي، كما أنّ الإشكاليّة ستتعقّد أكثر حينما نجد غالبيّة النّقاد العرب لا دراية لهم بالخلفيّة والمرجعيّة التّاريخيّة والثّقافيّة لتلك المناهج وأنّ التّعامل معها يتمّ من منطلق أنّها "**مذاهب عامة صالحة لكلّ الآداب العالميّة ولكلّ اللّغات الأدبيّة ،وخاصّة عندما رفعت شعار العلم والمنهج ووجدت علوماً إنسانيّة تشرحها**"(4)، فكلّ ما ينتجه الغرب في نظر هؤلاء جدير بالاهتمام وقابل للاستهلاك بصرف النّظر عن الأبعاد الفكريّة والفلسفيّة والمعتقداتيّة التي أوجدت هذه المناهج والتي بدورها نتجت عن رؤيّة "**والوعي بأبعاد الرّؤيّة شرط ضروري لاستعمال المنهج استعمالاً مثمراً ... الرّؤيّة تؤطّر المنهج وتحدّد له أفقه**"(5).

إنّ حيويّة الغرب وتعاظم إنجازاته وإبداعاته في ظلّ مستجدّات الحداثة لا يعنى أبداً الوصول لدرجة الخضوع وتقديس الآخر لأنّ ذلك يعطّل العقل العربي ويجعله بعيداً عن الإبداع وقريباً بل ومستسلماً لضغوطات العولمة وقد "**كان لهذه المسألة أثرها القوي في المستوى الفكري ممّا ولّد مواقف فكريّة حادة ومتقاطعة، كما ولّد الانتقائيّة والازدواجيّة، وهما ملمحان بارزان في الخطاب العربي المعاصر**"(6).

وعليه وقع الخطاب الأدبي العربي المعاصر في فخّ التّقليد الأعمى وراح يتعامل مع النّظريات والمناهج الغربيّة بكثير من الانفتاح وبشعار التّجديد والمعاصرة "**كنوع من أنواع المباهاة بمسايرة أحدث صراعات العصر وصيحاته**"(7).

وحتى نقف عند إشكاليّة المنهج ومدى وعي النّقاد العرب لمرجعياته وأبعاده أثناء تطبيقه في دراساتهم وتحليلاتهم ارتأينا العودة للنقد الجزائري واخترنا نموذجاً لناقد مميز في الاشتغال على المنهج والاهتمام بتطبيقاته، إنّه الأستاذ الدّكتور عبد الملك مرتاض النّاقد الجزائري صاحب الباع الطّويل والانتاج الغزير في الدّراسات النّقديّة العربيّة المعاصرة.

إشكاليّة المنهج في الخطاب النّقدي لمرتاض: يعدّ الدّكتور عبد الملك مرتاض من أكثر النّقاد الجزائريين تنويعاً وتجديداً في معالجته ودراسته للنصوص الأدبيّة كيفما كانت شعريّة أو نثريّة، حداثيّة أو تراثيّة مع اعتماد مجموعة من المناهج السّياقيّة والنّسقيّة، وبقدر ما في ذلك التّنويع والتّجديد من جرأة أدبيّة وثقة في الإقبال على الممارسة النّقديّة بقدر ما يرسم إشكاليّة في فكر ومنهج مرتاض الذي أبدع لنا منجزاً نقدياً محترماً على مدار عقود من الزّمن بمرجعيات مختلفة وتجارب منهجيّة متنوعة ولكن ذلك لم يمنع من ظهور إشكاليّة المنهج لدى هذا النّاقد في شقيها النّظري والتّطبيقي خاصّة مع نهاية

القرن الماضي وبداية الألفيّة الثّالثّة حيث اهتم مرتاض بالحداثة الغربيّة قراءةً وتمثّلاً.

يتجسّد الفكر النّقديّ لعبد الملك مرتاض ويتمظهر في مستويات متعدّدة بداية من خطاب التّأسيس مروراً بمستوى الممارسة النّقديّة فمحاولات التّرجمة للمؤلّفات الغربيّة ووصولاً إلى مجهوداته في التّنظير والتّقعيد وإن كان النّقد العربي عموماً "**لم يستطع بعد تأسيس أو بلورة نظريّة نقديّة عربيّة متميّزة تنطلق في تنظيراتها من خصوصيّة النّص العربيّ في واقعه وآفاقه وعلاقته بتراثه**"[(8)] واكتفى بالمناهج النّقديّة الغربيّة في عمليّة قراءة وتحليل النّصوص الأدبيّة حيث وجد جهازاً اصطلاحياً ومعرفياً واضحاً ومثبتاً يغنيه عن مشقّة إيجاد لغة نقديّة تساير مصطلحاتها وتراكيبها مفاهيم الحداثة ولهذا وقع نوع من الانبهار بالمناهج الغربيّة فانقسم النّقاد العرب إلى فئتين: الأولى رافضة لهذه الحداثة الغربيّة جملة وتفصيلاً وهي في نظرها شكل من أشكال الانسلاخ عن الجذور ودعوة للتغريب أمّا الفئة الثّانيّة فتبنت الحداثة ووجدت فيها تحوّلاً في الأشكال الفنيّة وطرائق الآداء.

وبين الفئتين ظهرت فئة ثالثّة من النّقاد والدّارسين العرب نذكر منهم تمثيلاً لا حصراً: حسين الواد، سعيد يقطين، عبد السّلام المسدّي وفي النّقد الجزائري عبد الملك مرتاض وغيرهم حاولت هذه الفئة تقريب الدّرس النّقدي العربي من نظيره الغربي من خلال محاكاة الحداثة الغربيّة وخاصّة في الجوانب التّطبيقيّة وتجسّد ذلك في الاعتماد على آليّة قرائيّة دقيقة وعميقة أعقبتها مرحلة تعريب ذلك المنجز النّقدي الغربي.

إنّ القارئ لكتابات مرتاض النّقديّة سيجد نفسه حائراً في تصنيفها لأنّ مرتاضاً من نخبة النّقاد المعاصرين الذين أبدعوا بغزارة وتنقلوا بين المناهج أو زاوجوا بينها وهذا ما جعل المتلقي عموماً يجد صعوبة في تصنيف النّقد

المعاصر وهو "**لا يستطيع أن يردّه إلى علم منضبط الأصول والإجراءات ولا يستطيع أن يردّه إلى مذهب نقدي بعينه**"(9).

هذا التّنويع في الكتابة والغزارة في الإنتاج جعل البعض يصف مرتاض بالنّاقد الذي يخوض في كلّ شيء وفي أي شيء والحقيقة أنّ الرّجل له مكانة علميّة وأكاديميّة مميزة في الأوساط الجامعيّة ولعلّ هذا ما دفع الأستاذ يوسف وغليسي للردّ قائلاً: "**لقد ألفينا عصبة من الجامعيين والنّقدة الهواة في الجزائر على الأقل ترى فيه رأياً هسيساً متنطّعاً متطاولاً، فحواه أنّ مرتاضاً رجل مكثار مهدار يخوض في أيّ شيء ويتناول كلّ شيء دون أن يبلغ منالاً من ذلك الشّيء وأنّى له ذلك وهو الموسوعيّ في عصر التّخصّص ..**"(10).

ولا شك أنّ الأستاذ عبد الملك مرتاض من أبرز النّقاد العرب الذين استوعبوا برزانة وحنكة أهميّة المنهج في الخطاب النّقدي ولذلك نجده أكثر انشغالاً وعمقاً في قضيّة المنهجيّة "**إذ لا يكاد يخلو كتاب من كتبه النّقديّة الغزيرة من مقدمة شافيّة تستوفي الإشكاليّة المنهجيّة حقّها من البسط والدّرس**" (11) كما أنّه من النّقاد الرّافضين لتناول النّص الأدبي بأفكار مسبقة وبأدوات جاهزة سلفاً لأنّ النّص في نظره عالم منغلق يخفي أسراره بداخله ولكنّه قابل للانفتاح يقول مرتاض: "**لا يجوز لنا أن نتقدّم إلى أي نصّ أدبي بسلاح قديم ثمّ نهجم عليه...بل علينا أن نمضي إلى هذا النّص الأدبي ولا سلاح لنا إلاّ الفكر الطّليق والرّأي الطّيع، والثّقافة العلميّة والمنهج الحديث الذي يجمع بين الأصالة والمعاصرة**" (12).

فمنهج دراسة النّص وتحليله في نظر مرتاض لا بدّ أن يجمع بين الأصالة والمعاصرة، وفي ذلك دعوة صريحة لأهميّة العودة للتراث العربي الإسلامي والنّهل منه لأنّ الأدب العربي وعبر عصور طويلة شهد إبداعات متميّزة لعدد لا يستهان به من المنظّرين من أمثال: عبد القاهر الجرجاني وابن قتيبة وقدامة والجمحي وغيرهم كثير ولا يمكن لأيّ ناقد أن يتجاهل هذه النّظريات والدّراسات

يقول مرتاض في هذا الصّدد: "**إنّا نعتقد أنّ كثيراً من النّظريات النّقديّة الحديثة والحداثيّة معاً، نلفي لها جذوراً وأصولاً أو على الأقل إرهاصات وإشارات في الفكر العربي القديم ولذلك لا يحقّ لأحد أن يقزّم هذا الفكر النّقدي أو يستخفّ به استخفافاً**"(13).

وبالعودة لإشكاليّة المنهج في دراسة النّص الأدبي سنجد الدّكتور مرتاض يقرّ بصعوبة وضع القواعد لضبط هذا النّص واستخراج ما بداخله بل أكثر من ذلك فقد عدّه ضرباً من السّذاجة وفي هذا السّياق يعلّق قائلاً: "**من السّذاجة السّاذجة أن يزعم زاعم من الدّارسين مهما تعمّقت تجربته واستطالتّ في الزّمان خبرته ودامت ممارسته لتحليل النّص الأدبي أنّه قادر كلّ القدرة على وضع قواعد تضبط دراسة هذا النّص وتستخرج كنوزه وتكشف عن خفاياه، إنّ مثل ذلك في تقديرنا عسير جداً، إن لم يكن مستحيلاً** " (14).

وعليه رأى مرتاض أنّ النّص متجدّد على الدّوام مع كلّ قراءة، وعطاؤه أزليّ لا ينفذ ومن هنا جاءت فكرة **اللامنهج** التي وردت في عبارته الشّهيرة "**إنّ اللامنهج في تشريح النّص الأدبيّ هو المنهج** "(15)، ويبدو أنّ الكثير من الباحثين والدّارسين أساءوا فهم اللامنهج عند مرتاض وربطوه بمفهوم "**المنهج التّكاملي**" واللامنهج عند مرتاض بعيد عن المنهج التّكاملي فهذا الأخير يحاول ضمّ المناهج وترقيعها ببعضها البعض بغيّة الحصول على صورة منهجيّة شاملة وذلك في نظر مرتاض **(خرافة مستحيلة التّحقق)**.

وحقيقة اللامنهج عند مرتاض أنّه يرفض الآليات والأدوات الثّابتة والجاهزة مسبقاً لدراسة النّص وهو يدعو للمرونة والانفتاح على هذا النّص لاستيعاب خصائصه فهو يتحدّد "**بمعارضته للمنهج الجامد والتّطبيق الميكانيكي للآليات المنهجيّة الثّابتة التي لا بدّ أن تكون غريبة نسبياً عن خصوصيّة النّص المدروس ومنه فإنّ اللامنهج في أبسط صوره يعني الدّخول المحايد للنّص مجرّداً من الآليات المنهجيّة الصّارمة**" (16).

إنّ أولئك الذين انتقدوا مرتاضاً ورأوا في منهجه النّقدي ارتباكاً وضبابيّة وعدم وضوح لم يستوعبوا قضيّة "اللامنهج" لديه إذ يعدّ بمثابة السّلوك المنهجي المخطّط له بغيّة عدم الخضوع لمنهج معيّن، فهو الطّريقة الخاصّة التي يسير عليها النّاقد عبد الملك مرتاض ويعيها ويرسم آفاقها للحدّ من صرامة المنهج وتحرير النّاقد لاختيار الآليات المناسبة حين دراسة النّص وفي هذا الشّأن يقول مرتاض: "**نحن لا نستنيم إلى أيّ منهج على وجه الإطلاق، فنتخذه لنا صنماً أو نظل له عبداً، نتبناه ولا نبحث عن سواه، ولعلّ ذلك ممّا يبدو واضحاً لدن من يتبع مسيرتنا النّقديّة من حيث تعمّد التّنقل في كتاباتنا من منهج إلى منهج آخر...والحقّ أنّ ذلك كان منّا شأناً متعمّداً**"(17).

على ضوء المقولة السّابقة نستنتج موقف مرتاض من المناهج النّقديّة وتعامله معها من منطلق عدم وجود منهج كامل متكامل فالنّقص ميزة كلّ منهج ويظهر ذلك جلياً أثناء التّطبيق، وعليه يلجأ النّاقد مجبراً إلى تدعيم أدواته النّقديّة بآليات وإجراءات منهج آخر، وتأكيداً لانعدام الكمال في أيّ منهج يقول مرتاض: "**نحاول أثناء الممارسة التّطبيقيّة أن نضيف ما استطعنا إضافته من أصالة الرّؤيّة المنهجيّة، لينتج العمل الذي ننجزه شيئاً من الشّرعيّة الذّاتيّة ولنبتعد عن النّظرة الميكانيكيّة إلى النّص ...**" (18).

أمام هذا التّمسك باللامنهج كخيار استراتيجي يفسّر الخط المنهجي لمرتاض ونزوعه للتّجريب والتّجديد في دراساته النّقديّة سيطرح الباحث والدّارس للمنجز النّقدي المرتاضي سؤالاً مركزياً هو: ما الذي جعل مرتاض يختار "اللامنهج" ويجعله بؤرة الممارسة النّقديّة والمنهجيّة لديه؟

والحقيقة أنّ ناقدنا يجيب عن هذا الانشغال في كتابه "التّحليل الجديد للشعر" محدّداً سببين لذلك في قوله: "**أوّلهما: ما رأيناه من بعض النّقاد العرب، ممّن يتّخذون المنهج الاجتماعي لهم طريقاً في معالجاتهم التّحليليّة ...وكأنّه قدر مقدور نزّل عليهم من السّماء ...بل نجد الآخرين من أصحاب المناهج**

الجديدة هم أيضاً يأتون ذلك ...ولو وفّق هؤلاء وأولئك جميعاً في أمرهم لكانوا اجتهدوا في التّنقل من منهج إلى منهج آخر...ولكنّهم لم يأتوا من ذلك شيئاً ...وآخرهما.

تأثّرنا بمقولة أستاذنا "أندري ميكائيل" وهي المقولة التي فهمنا منها عدم رفض المنهج مطلقاً ولكن ضرورة الحيدودة عن المتّخذ منه سابقاً ابتغاء تطويره وتعصيره ... فجهدنا في أن يكون لنا ذلك سعياً مستمراً" (19).

وخلاصة القول في قضيّة "**اللامنهج**" عند مرتاض هي: التّصرف في إجراءات المنهج وعدم التّمسك والخضوع لسلطة المنهج الواحد وبالتّالي تبني مسألة التّعدديّة، حيث اعتمد مرتاض مجموعة من المناهج في مسيرته النّقديّة الحداثيّة من أبرزها وأكثرها حضوراً في دراساته:

المنهج السّيميائي: يعتبر مرتاض من أكثر النّقاد الجزائريين تجدّداً على الصّعيد المنهجي فهو دائم التّنقل من منهج إلى منهج آخر ولكنّه خالف القاعدة حينما تبنّى المنهج السّيميائي فجعله محور الدّوران الذي تلتقي عنده المناهج السّياقيّة والنّسقيّة على حدّ سواء ويظهر ذلك جلياً في الدّراسات التّطبيقيّة وفي عناوين عدد من المؤلفات مثل **(شعريّة القصّ، وسيميائيّة النّص)** وفي عنوان آخر **(التّحليل السّيميائي في الخطاب الشّعري)** وقد رأى مرتاض أن القراءة التّحليليّة بالمهنج السّيميائي هي "**وسيلة للذهاب بعيداً إلى ما وراء النّص لفهمه والكشف عن مواطن الجمال فيه ،والانتهاء إلى معرفة الدّلالة الفنيّة التي تطويه بالتّستر عليه، فلا تبدو إلا من خلال استعمال هذا الإجراء الذّكي وإن شئت السّحري الذي يفجّر الجوامد ويعرّي الكوامن ...**"(20).

لقد تمسّك مرتاض بالمنهج السّيميائي وطبّقه في العديد من دراساته وأبحاثه شعراً ونثراً وكانت البداية مع حكاية "**حمّال بغداد في ألف ليلة وليلة**" حيث تناول هذا المتن وحلّله تحليلاً سيميائياً تفكيكيّاً سنة 1989 ليستمر معه هذا المنهج تطبيقياً حتى في تحليل الذّكر الحكيم **(سورة الرّحمن).**

ويبدو أنّ مرونة المنهج السّيميائي وفتحه مجالا من الحريّة والتّأويل للناقد من جهة ثم أنّه يسمح بالتّركيب المنهجي والانفتاح على المناهج الأخرى من جهة ثانيّة هي عوامل جعلت النّاقد عبد الملك مرتاض يستقر على السّيميائيّة زمناً أطول وزاد تشبّثه بها حينما وجدها حاضرة في الفكرالتّراثي العربي فمقولة الإنزياح في اللّغة أشار إليها سيبويه، وظاهرة التّناص متجذّرة في النّقد العربي القديم مع ابن رشيق وحازم القرطاجني وغيرها من المقولات الحداثيّة.

المنهج البنيوي: البنيويّة منهج نقدي شائع في الدّراسات الحداثيّة يلقي بظلاله على الكثير من الأعمال والإبداعات الأدبيّة وقد تبنى النّاقد عبد الملك مرتاض هذا المنهج وطبّقه في عدد من الأبحاث والدّراسات لعل من أبرزها مؤلّفه "**الأمثال الشّعبيّة الجزائريّة**" ولكن المتمعن في هذا الكتاب سيدرك حتماً أنّ مرتاض يقرن في دراسته المنهج البنيوي بمناهج أخرى بل أكثر من ذلك فهو يجنح للجانب السّياقي ويركّز على المرجعيّة التّاريخيّة والاجتماعيّة في تحليله للّغة الأمثال الشّعبيّة حيث يقول: "**والذي يلاحظ أنّ الكثير من هذه الأمثال قيلت في بيئة زراعيّة قحّة ،بعيدة عن الاتصال بالبيئة العجميّة ممّا يبرهن على أنّها قيلت في معظمها، قبل الاحتلال الفرنسي**"[(21)] وهذا أمر تأباه البنيويّة التي تدعو لدراسة الأثر الأدبي لذاته دون الالتّفات للجوانب التّاريخيّة والاجتماعيّة والنّفسيّة وغيرها ومع ذلك يصرّح مرتاض أنّ منهجه في الدّراسة البنيويّة هو منهج خاص به لا يلتزم فيه بالقواعد والضّوابط البنيويّة بل يقرنها بغيرها من المناهج "**أنا أعتبره منهجاً خاصّاً بي، لا هو ينتمي إلى البنيويّة انتماءً خالصاً، ولا هو ينتمي إلى الالسّنيّة انتماءً بحتاً** "[(22)].

لقد تأثر مرتاض في بداياته الحداثيّة بأسلوب البنيويين في تحليل النّصوص الإبداعيّة فجاءت مؤلفاته في تلك الفترة زاخرة بالمخطّطات البيانيّة والجداول وغيرها ولعلّ من سلبيات ذلك التّأثر وقوع مرتاض في إشكاليّة فصل الشّكل عن المضمون في الدّراسة البنيويّة وهذا ما آخذه عليه الدّارسون والمتخصّصون

فاستدرك ذلك وراح يؤكد أهميّة تناول الشّكل والمضمون كجسد وروح لا يمكن الفصل بينهما "**إذ ليست محاولة الفصل بين مضمون النّص وشكله إلاّ محاولة لفصل الرّوح عن الجسد**" [23].

المنهج الأسلوبي: من أبرز خصائص الأسلوبيّة أنّها منهج منفتح على المناهج الالسّنيّة الأخرى بل ويتداخل معها فما من دراسة تحليليّة تقوم على البنيويّة أو السّيميائيّة مثلاً إلا ونجد الدّراسة الأسلوبيّة ماثلة أمامنا، ويبدو أن مرونة المنهج الأسلوبي وافقت رؤيّة "اللامنهج" التي تبناها مرتاض وخاصّة عند التّماسه تفاعل المناهج الالسّنيّة فيما بينها أثناء الدّراسة التّحليليّة وبالتّالي الوصول لأعماق النّص وسبر أغواره حين رصد مستوياته: الدّلاليّة والمعجميّة والإيقاعيّة والتّركيبيّة ....وغيرها ولعلّ هذا ما جعل مرتاض يعتبر الفعل النّقدي بمثابة تحليل "**يجب أن تنصرف عنايته إلى الكشف عمّا في نسيج النّص من جمال فنّي ،وتشكيلات أسلوبيّة، وانزياحات في الاستعمالات اللغويّة**"[24].
ولأنّ مرتاض اعتمد المنهج السّيميائي في الكثير من أعماله كما أسلفنا فقد جاء المنهج الأسلوبي مقترناً به ومساعداً النّاقد والمحلّل على كشف المميزات الفنيّة والأبعاد الدّلاليّة لكل نص ولعل هذا ما يبدو جلياً في بعض دراسات وتحليلات مرتاض ومنها بشكل خاص تحليله لقصيدة "أين ليلاي" لمحمد العيد آل خليفة.

لقد اقتنع مرتاض بأهميّة الإجراءات الأسلوبيّة فجعلها مساندة للمناهج الالسّنيّة الأخرى وبخاصّة في دراساته ذات التّوجه الحداثي، كما أنّه يؤكد على علميّة الدّراسة الأسلوبيّة وبعدها عن الذّاتيّة حين يصرح قائلاً: "**لا نستطيع معرفة أسلوب النّص إلاّ بدراسة أسلوبيته، والأسلوبيّة ينشأ عنها بالضّرورة تقديم دراسة علميّة محايدة لا أثر فيها للذاتيّة** "[25].

المناهج التي استعرضناها هي نماذج لأكثر الأساليب التّحليليّة حضوراً في الدّراسات الحداثيّة للنّاقد عبد الملك مرتاض وهذا لا يعني عدم اشتغاله على المناهج الأخرى فقد سبق وأشرنا لما يميزه عن غيره من النّقاد إذ تتجلى مسيرته

النّقديّة حافلة بالأعمال النّقديّة ومتنوّعة المناهج والأساليب مع قدرة عجيبة على الانتقال من منهج لمنهج آخر والتّجديد باستمرار لإثراء السّاحة النّقديّة وتمثّل المناهج الحداثيّة خاصّة، مع العمل على تطبيقها في تحليل النّصوص العربيّة وإن لم ننتجها أو نتبيّن مرجعياتها الفكريّة والثّقافيّة والحضاريّة.

الهوامش والإحالات:

(1)ميجان الرّويلي، سعد البازغي، دليل النّاقد الأدبي، المركز الثّقافي بيروت، الدّار البيضاء ص:122 .

(2)عمر روينة، المدخل المنظومي وتحديات العولمة، مجلة البحوث والدّراسات،ع4 ،المركز الجامعي الوادي 2007، الجزائر، ص:135 .

(3)سعيد يقطين، فيصل دراج، آفاق نقد عربي معاصر، دار الفكر، دمشق سوريا، لبنان ط1 2003، ص:30.

(4)محمد الدّغمومي، نقد النّقد وتنظير النّقد العربي المعاصر، منشورات كليّة الآداب، الرّباط المغرب، ط1 1999، ص:197.

(5)محمد عابد الجابري، نحن والتّراث، منشورات المركز الثّقافي، ط6 1993 ص: 26.

(6)كمال عبد اللطيف، قراءات في الفلسفة العربيّة المعاصرة، دار الطّليعة بيروت،1994 ص:50.

(7)جابر عصفور، خصوصيّة النّقد المعاصر، جريدة الحياة، 6 يوليو1998 ع 12907 ص:13.

(8)قادة عقاق، الخطاب السّيميائي في النّقد المغاربي، دار الألمعيّة قسنطينة الجزائر ط1،2014، ص:53.

(9)وهب رميّة، مجلة شعرنا القديم والنّقد الجديد، عالم المعرفة، مارس/آذار 1996، ص: 7.

(10)يوسف وغليسي، الخطاب النّقدي عند عبد الملك مرتاض، إصدارات رابطة إبداع الثّقافيّة، 2002، ص: 9

(11)المرجع السّابق، ص: 3

(12)عبد الملك مرتاض، النّص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟ ديوان المطبوعات الجامعيّة الجزائر،1983، ص:53.

(13)عبد الملك مرتاض،(ألف –ياء)، تحليل مركب لقصيدة أين ليلاي لمحمد العيد آل خليفة دار الغرب، وهران، الجزائر،2004 ص: 26.

(14)عبد الملك مرتاض، النّص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟ ص:49.

(15)المرجع السّابق، ص: 54.

(16). يوسف وغليسي، الخطاب النّقدي عند عبد الملك مرتاض، ص: 88.

[17]عبد الملك مرتاض، التّحليل الجديد للشعر، معالجة تحليليّة، أكاديميّة الشّعر، أبو ظبي الإمارات العربيّة المتحدة، ط1، دط،2017، ص:39.
[18]عبد الملك مرتاض، التّحليل السّيميائي للخطاب الشّعري، منشورات إتحاد الكتاب، سوريا دمشق، دط، 2005، ص:13.
[19]عبد الملك مرتاض، التّحليل الجديد للشعر، ص: 40 ـ 41.
[20]عبد الملك مرتاض: الشّعر الأوّل، معالجة تاريخيّة رصداً وأنثروبولوجيّة مقاربة، وسيميائيّة تحليلاً لمطالع المعلقات، أكاديميّة الشّعر، أبو ظبي، إ،ع، م ط 1، ص: 23 ـ 24.
[21]عبد الملك مرتاض، الأمثال الشّعبيّة الجزائريّة، تحليل لمجموعة من الأمثال الزّراعيّة والاقتصاديّة ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر ط3 2014ص:93.
[22]جهاد فاضل، حوار مع عبد الملك مرتاض، ضمن كتاب، أسئلة النّقد ص: 216.
[23]عبد الملك مرتاض، ألف ليلة وليلة، تحليل سيميائي تفكيكي لحكاية حمّال بغداد، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، دط،1993، ص: 09.
[24]عبد الملك مرتاض، نظريّة القراءة، دار الغرب، وهران، الجزائر دط،2003 ص: 329.
[25]عبد الملك مرتاض، النّص الأدبي من أين؟ وإلى أين؟ ص: 64.